

التفسير المطول - سورة آل عمران ٠٠٣ - الدرس (٣٠-٦٠): تفسير الآيات ١١٦ - ١٢٠
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠١-٠٦-٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً ، و أرزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً ، وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .
أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثلاثين من دروس سورة آل عمران ، و مع الآية السادسة عشرة بعد المئة ، و هي قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٦)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا

وفي آية أخرى يقول الله عز وجل :

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

(سورة الكهف : الآية ٤٦)

١ . ذاك يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون :

أي أن تكون غنياً ، و أن يكون بين يديك أولاد أنعم الله بهم عليك ، هذه زينة الحياة الدنيا ، فهذا الذي كفر بالله ، و أدار ظهره لمنهج الله ، و لم يعبأ بوعيد الله ، و لم يبتغ رضوان الله ، و لم يعمل للجنة ، بل جعل الدنيا أكبر همه ، ومبلغ علمه ، فجمع الأموال الطائلة ، وأنجب ذرية تفوقت في الحياة الدنيا ، فإذا أراد الله أن يؤدبه فهل يمكن أن يمنعه المال الوفير الذي بين يديه من تأديب الله له ؟

٢ . ما كل شيء يحل بالمال والولد :

ثمة شخص - وأرجو أن تكون هذه زلته الأخيرة - قال : الدراهم مراهم ، قال : كل شيء يحل بالمال ، فساق الله له مصيبة تنهد لها الجبال ، و المال لا يفعل فيها شيئاً ، قال لي : أدبني تأديباً كبيراً ، ما كل شيء يحل بالمال ، هناك أمراض وبيلة لو أنفقت كل ما تملك ليس لها شفاء ، هناك

مصائب مخيفة لو كل ما تملك في الدنيا دفعته لم تحل المشكلة ، فهذا الذي أعرض عن الله عز وجل ، وأدار ظهره للدين لو أنه يملك الملايين المملينة من الدولارات ، وأراد الله تأديبه ، و ساق الله له مصيبة ، والله حكيم حينما يسوق المصائب ، سميت مصائب لأنها تصيب الهدف ، الغني لا يتأثر بفقد مبلغ من المال ، لكن تأتيه مصيبة في صحته ، والقوي لا يتأثر بفقد بعض المال ، فتأتيه مصيبة من مركز قوته ، ويؤتى الحذر من مأمته ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، أي مع الله لا يوجد إنسان ذكي أبداً ، الله عز وجل حينما يسوق مصيبة لا يمكن إلا أن تقع :

﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ ﴾

(سورة الرعد : الآية ١١)

مهما كنت غنياً ، أو مهما كنت قوياً ، أو مهما كانت لك ذرية طيبة ، أو ذرية متفوقة ، ماذا يفعل أولاد الغني حينما يأتيه المرض العضال ؟ لعل بعضهم يتمنى وفاته ، ولعل بعضهم إذا قال الطبيب : قضية عارضة يتألم ، فالعبرة أن الإنسان إذا كفر بالله عز وجل ، وأدار ظهره لمنهج الله لا ينفعه ماله ، حينها يتولى الله تأديبه ، ولا ينفعه أولاده النجباء المتفوقون إذا أراد الله معالجه ، بل إن هذا الذي ربيته ، وأنفقت مالك من أجله قد يتنكر لك ، وقد دخلت مرة إلى مكتب رجل يحتل منصباً مرموقاً ، ومعى والده ، فما كان من صاحب هذا المنصب الرفيع إلا أن قال لوالده : اجلس هنا أبا فلان ، دون أن يعرف الناس بأنه أبوه ، وكأنه يستحي به ، فلما خرجت من عنده ، قلت له : ابنك على حساب من درس في أمريكا ؟ قال : و الله على حسابي يا بني ، على حسابي الشخصي ، فدرسه ، ونال أعلى شهادة ، و احتل أعلى منصب ، وها هو ذا يستحي بأبيه ، فلا ينفعك مالك إذا أراد الله تأديبك ، ولا تنفعك ذريتك القوية إذا أراد الله معالجتك ، و آية بليغة جداً .

إن الإنسان حينما يولد كل من حوله يضحك ، و هذا المولود يبكي وحده ، أما إذا جاء ملك الموت كل من حول الإنسان يبكي ، بطولة الإنسان أن يضحك وحده في هذه اللحظة ، أن تنطبق عليه الآية الكريمة :

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾

(سورة يس : الآية ٢٦ - ٢٧)

وا كريته يا أبت ، قال : لا كرب على أبيك بعد اليوم ، غداً نلقى الأحبة محمداً و صحبه . فهؤلاء الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً . والله كنت عند طبيب قلب ، فجاءه اتصال هاتفي ، فسمعت فحوى المكالمة ، الجهاز قديم ، وصوته عال جداً ، قال له : أيّ مكان في العالم ، وأيّ مبلغ بلغ ما بلغ ندفعه ، قال له : والله لا يوجد أمل ، السرطان من الدرجة الخامسة .

حينما يأتي المصاب الجلل لا ينفع المال ، ولا ينفع الولد ، وهذا الذي عصى الله من أجل أولاده لن ينفعه أولاده عندما تأتيه المصيبة ، هذا الذي عصى الله من أجل تجميع الأموال الطائلة لن تنفعه هذه الأموال حينما تأتي المصيبة.

حدثني طالب له خال صاحب دار سينما ، القصة في الخمسينات أصابه مرض عضال ، وهو على فراش الموت بكى ، فقال له : مالك تبكي ؟ . ابن أخيه ، وكان طالباً من طلابي . قال له : . القصة أعتقد أنها في الخمسينات . خمسة ملايين ، خمسة ملايين بالخمسينات أي خمسمائة مليون ، من أجل أن أعيش حياة ناعمة في خريف عمري ، ها أنا ذا أموت ، ولم أنتفع بها ، مساكين هم الأغنياء ، جمعوا أموالاً لا تأكلها النيران ، فأنهاهم مرض عضال ، ولم ينتفعوا بأموالهم . أقام شخص في البلد الحرام خمساً وثلاثين عاماً ما صلى فرض صلاة ، ولا حج ، ولا اعتمر ، ذهب إلى بلد غربي ليستجم فوافته المنية في الفندق ، ترك أربعة آلاف مليون :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴿

رجل من أكبر أغنياء بعض البلدان وافته المنية في أيام مطيرة ، و القبر أشتري ، فتح القبر فإذا مجرى المياه المالحة قد دخل إليه ، المياه سوداء ، وله ابن وحيد مدلل ، فسئل : ماذا نفع ، القبر هكذا ؟ قال : ادفنوه ، وانتهوا ، فوضعه في قبر مع المياه المالحة السوداء .

٣ . الابن الصالح ينفع والديه :

الابن لا يغني عنك من الله شيئاً ، اعتن به ، أما إذا كنت مؤمناً فابنك أكبر ثروة لك ، لأنه امتداد لك ، لأنه استمرار لك ، لأنه خير كسبك .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ : إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ

وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[مسلم ، الترمذي ، النسائي ، أبو داود ، أحمد ، الدارمي]

٤ . إياك أن يكون مالك وبلاً عليك :

إذا عرض الإنسان عن الله ، وأدار ظهره لمنهج الله ، لو معه ملايين مملينة لم تنفعه ، إنسان في بأمريكا صاحب ، أكبر مجموعة مطاعم تطعم السمك ، عنده يخت في البحر ، ذهب هو وعشيقته في رحلة بحرية ، واختفت أخباره نهائياً ، لا خبر عنه ، ولا عن عشيقته ، ولا عن مركبته ، فتندر الناس في تلك البلدة ، وقالوا : أطعم الناس السمك أربعين عاماً ، وها هو ذا يأكله السمك ، مهما كنت غنياً ، وأكبر غني يهودي كان في بريطانيا ثروته الطائلة في غرفة ، صندوقه الحديدي في غرفة ، دخل إليها مرة ليتفقد أمواله ، فأغلق الباب خطأ ، والغرفة مصفحة ومسلحة ، بقي يصرخ ، وينادي حتى وافته المنية ، فجرح أصبعه ، وكتب على الحائط : أغنى أغنياء العالم يموت جوعاً و عطشاً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴾

جمعت المال مما حلّ ، وحرّم فأنفقته في حله ، و في غير حله ، فالهناء لكم ، و التبعة علي ، روح الميت تترف فوق النعش ، وتقول : يا أهلي ، يا ولدي ، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي ، جمعت المال مما حلّ ، وحرّم فأنفقته في حله ، وفي غير حله ، فالهناء لكم ، والتبعة علي ، وأنتم الناس يوم القيامة غني دخل وريثته بماله الجنة ، و دخل هو بماله النار .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴾

عندما يأتي ملك الموت لا تتفعلك الملايين المملينة ، ولا الحسابات الكبيرة في البنوك ، و لا الأخضر ، ولا الأصفر ، ولا الأحمر ، لا ينفعلك إلا عمك الصالح ، إن لك قريباً تدفن معه ، وأنت ميت ، ويدفن معك ، وهو حي ، فإن كان كريماً أكرمك ، و إن كان لئيماً أسلمك ، ألا وهو عمك .

٥ . الغنى الحقيقي والفقر الحقيقي :

الغنى والفقر بعد العرض على الله ، والغنى غنى العمل الصالح ، والفقر فقر العمل الصالح ، حينما سقى لهما سيدنا موسى قال :

﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾

(سورة القصص : الآية ٢٤)

الغنى الحقيقي الذي أجرى الله على يديه الخير ، و الفقير الحقيقي الذي حرّمه الله من عمل صالح ، و الإنسان حينما يكفر لا يتحرك حركة إلا بالمال ، ولا ينطق بكلمة إلا بأجر ، و لا يدل دلالة إلا بنسبة ، ولا يسهم بعقد صفقة إلا بعمولة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴾

٦ . نقمة الولد فاقد التربية ، ونقمة المال الحرام :

أي لن تمنعهم أموالهم من قضاء الله ، من تأديب الله ، من مصيبة أرادها الله ، و لا أولادهم ، وكلّم يرى حينما يأتي تأديب الله ماذا يفعل الابن ؟ يبكي فقط ، هذا إذا كان الابن محباً مخلصاً ، وإذا لم يربّ التربية الإسلامية يفرح لموت أبيه ، تسلّم من بعده مركبته ، وأمواله ، ومكانته ، ومتجره ، قال له : إلى أين أنت ذاهب . سأرويها باللغة العامية . قال له : سأذهب لأسكر على روح أبي ، ترك له مالاً عريضاً ، ولم يربه التربية العالية ، لذلك ورد في بعض الآثار القدسية :

((أن يا عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ قال : يا ربي أنفقته على كل محتاج و مسكين
لثقتي بأنك خير حافظاً و أنت أرحم الراحمين ، فقال الله : أنا الحافظ لأولادك من بعدك))
والله ألوف مؤلفة من المؤمنين ماتوا ، و لم يدعوا شيئاً لأولادهم ، فتولاهم الله بالرعاية والعناية ،
فكان أولادهم أعلاماً في المجتمع ، و أغنياء ومحترمين ، وقال لعبد آخر :
((عبدي ، أعطيتك مالاً ، فماذا صنعت فيه ؟ قال : يا رب ، لم أنفقه مخافة الفقر على أولادي
من بعدي ، قال : ألم تعلم بأني أنا الرزاق ذو القوة المتين ؟ إن الذي خشيته على أولادك من
بعدك قد أنزلته بهم))

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴾

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ و إذا كان الله عليك فمن معك ؟ إذا كان الله معك خدمك عدوك ، و
إذا كان الله عليك تطاول عليك ابنك .
أقسم لي شخص بالله قال لي : إنه إذا دهس ابنه ليقيمن مولداً نبوياً فرحاً بهذا الحدث من شدة
عقوقه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴾

هذا الذي جمعت المال حراماً ، هذا الذي جمعت المال كذباً و نفاقاً و دجلاً ، هذا الذي جمعت
المال و غششت المسلمين ، هذا الذي من أجله جمعت المال ، وكذبت على المسلمين ، هذا الذي
من أجله جمعت المال ، و كنت مجرمًا بحق المسلمين ، هذا الذي من أجله جمعت المال ،
وابتزرت أموال المسلمين ، هذا الذي من أجله جمعت المال ، وخنت المسلمين ، لن ينفكك ، ولن
يمنع عنك قضاء الله و قدره ، وهذه المعاصي التي ارتكبت من أجل جمع المال فهذا المال لن
ينفكك .

هناك إنسان جمع في الستينات حوالي ثمانمائة مليون من دور القمار ، كان يدير شبكة دور قمار ،
وهو على فراش الموت أوتي له برجل ممن يعمل في الحقل الديني ، قال له : ماذا أفعل ؟ هذا
الرجل هكذا قال له ، أنا لا أقيم كلام الرجل صحيحاً كان أو خطأ ، قال له : والله لو أنفقت
الثمانمائة مليون الآن لن تنجو من عذاب الله ، ثمانمائة مليون في الستينات تركها ، لن تنجو من
عذاب الله ، هذا مال جمع من القمار :

تشاد له المنازل شاهقات و في تشييد ساحتها الدمار
نصيب النازلين بها سهاد و إفلاس فيأس فانتحار

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴾

يحشر الأغنياء أربع فرق يوم القيامة ، فريق جمع المال من حرام ، وأنفقه في حرام ، لا يوجد طول في الحساب ، ثانية حساب ، خذوه إلى النار ، وفريق جمع المال من حلال ، تجارة مشروعة ، وأنفقه على الموائد الخضراء ، وفي الليالي الحمراء . وفهمكم كفاية . فيقال : خذوه إلى النار ، وفريق جمع المال من حرام ، عنده دار ملهى ، وعنده راقصات ، وعنده مغنين ، وعنده عشاء مع الموسيقى ، والسيارات مكتظة حوله ، تجد أمام بعض الملاهي مئة سيارة تقف ، ماذا يوجد داخل الملهى ؟ يوجد راقصة ، ومغن ، وطعام ، وخمر ، وإعلانات ، ودعاية ، فهذا جمع المال من حرام ، وتزوج ، وأنفقه في حلال ، فيقال خذوه إلى النار ، جمع المال من حرام ، وأنفقه في حرام ، خذوه إلى النار ، جمع المال من حلال وأنفقه في حرام ، خذوه إلى النار ، جمع المال من حلال وأنفقه في حرام ، من هذا الذي سيحاسب ؟ هذا الذي جمع المال من حلال وأنفقه في حلال ، قال : هذا قفوه فاسألوه : هل فاتته فريضة ؟ هل قال جاره : يا رب ، لقد أغنيته بين أظهرنا فقصر في حقنا ؟ هل ضيّع صلاة ، أو فريضة ، أو نسي مسكيناً ؟ فيقول عليه الصلاة والسلام : وما زال يُسأل ويُسأل ، وجد أمامه قائمة أسئلة طويلة جداً ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴾

دققوا الآن في هذه الآية ، يقول الله عز وجل في الآية التي بعدها :

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٧)

الإنسان معه أموال طائلة ، يقول لك : المشروع الفلاني مئة ألف مليون ، عشرة ملايين ، الإنفاق يحتاج إلى إيمان ، وإلى معرفة بالله ، وإلى معرفة بالدار الآخرة حتى يكون الإنفاق عملاً صالحاً ، أما إذا لم يوجد إيمان فالإنفاق هدفة حينئذ أن يمدحك الناس ، وأن يثنوا عليك ، لذلك قد تعجب . قد تجد غنياً في حفل خيري يتبرع بأموال طائلة ، له ابن أخ يعاني من الجوع ، له قريب حميم يعاني من الفقر ، لا يعطيه شيئاً ، هناك يوجد تصفيق ، وهنا لا يوجد رُخامة ، أنشأ هذه المحسن الكبير ، فهو يبحث عن سمعة ، عن مكانة ، عن ثناء الناس ، فهذا الذي لا يستقيم على أمر الله وينفق ماله ، إذا كان مخلصاً له عند الله أجر ، أما إذا أنفق المال رياء الناس ، ولم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، قال تعالى :

﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾

(سورة البقرة : الآية ٢٦٤)

كقوله تعالى :

﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾

(سورة التوبة : الآية ٥٣)

أنا لا أثبط عزائم المنفقين ، ولكن أتمنى عليهم أن يكون إيمانهم إيمانا قويا ، وأن يكون إيمانهم بالآخرة يقينياً ، حتى يكون إنفاقهم درجات عند ربهم يوم القيامة ، قال تعالى :

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٧)

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ

١ . معنى الصرّ :

الصرّ : هو البرد الشديد ، أو الصقيع ، وكلكم يعلم بأنه قد يكون هناك مزارع ، أو بساتين ، أو محاصيل يزيد قيمة بيعها عن مئة مليون في أقل من ستين ثانية يأتيها صقيع يُتلفها عن آخرها ، قال تعالى :

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٧)

فيها صرّ ، أي فيها صقيع .

٢ . الأهواء والمصالح تفسد العمل الصالح :

فالكفر ، والإعراض ، وحب الدنيا ، وحب الرئاسة ، والأهواء تُفسد العمل الصالح ، ولو كان صالحاً كما يفسد الخل العسل ، قال تعالى :

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

لو أنّ هؤلاء الكفار أنفقوا ، يقولون لك : الفلان الغني الأمريكي أنفق ثمانية ملايين لأطفال أفريقيا ، هذا جيد ، الغني الفلاني أنفق كذا مليار دولار لأبناء شرق آسيا ، وهذا أيضاً جيد ، ولكن إن لم يكن هناك إيمان حقيقي بالله ، وليس هناك التزام بمنهج الله فلا ينفعه ذلك ، قال تعالى :

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾

(سورة التوبة : الآية ١٩)

مرة ثانية ، أنا أبداً لا أثبت المنفقين ، ولكن أوضح لكل إنسان أن يحتاج إلى إيمان ، إذا آمنت كان هذا الإنفاق درجة عالية في الجنة .

أنا والله كل إنسان ينفق في وجوه الخير أقول له : لعل الله يجعل لك من هذا الإنفاق قصوراً في الجنة ، أدعو له أن يحفظ الله له صحته ، وصحة زوجته ، وأولاده ، وبناته ، وأصهاره ، وصحة من يلود به ، وأن يحفظ له ماله ، ومكانته ، وسعادته ، أدعو له من أعماقي ، أي إنسان ساهم بإنفاق ، بعمل صالح ، ببر ، أنا أشجع المنفقين ، وأتمنى عليهم أن يضاعفوا إنفاقهم ، ولكن أذكرهم أن الإنفاق وحده من دون إيمان بالله ، ومن دون التزام بمنهجه ربما لا يُجدي ، لقوله تعالى :

﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾

(التوبة : الآية ٥٣)

٣ . ينفقون باليمين ويذبحون بالشمال :

أليس هناك دول تقدم مساعدات لدول فقيرة باليد اليمنى ، وتذبحها باليد اليسرى ؟ أليس هناك بلاد تقدم مساعدة غذائية لبلد في حرب أهلية ، ومع المساعدة الأهلية نفايات ذرية تُلقى في شواطئ هذا البلد ؟ أليس هناك بلاد تقدم مساعدات لأبناء الشعوب الفقيرة ، ويُجعل أبناء الشعوب الفقيرة حقول تجارب للأدوية ؟ ففي الستينات والسبعينات كانت الفئران حقول تجارب للأدوية ، الآن بشر في الشعوب المتخلفة تُجرى عليها تجارب الأدوية ، فهذا الذي ينفق ماله كمساعدات ، ثم يرتكب جرائم في حق الشعوب ، ما قيمة هذا الإنفاق ، هذا إنفاق إبليسي أساساً ، قال تعالى :

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾

هناك بلد غربي قدّم هدية لدول شمالي إفريقية ، هدية رائعة ، هدية لهذه الشعوب التائهة ، محطة فضائية إباحية ، قدّم لهذه الشعوب محطة فضائية إباحية ، هذا إنفاق ، فهذا إنفاق الكفر ، أو حرب طاحنة بين شعبين ، تقدّم المساعدات أسلحة لتزداد نار هذه الحرب .

أنا لا أنسى كلمة قالها رئيس أمريكي لرئيسة وزراء بريطانيا في مؤتمر أوروبي ، قال كلمة تُعبر عن حقيقة الكفار ، هدّد رئيس أمريكا رئيسة وزراء بريطانيا بإيقاف الحرب بين شعبين مسلمين بين إيران والعراق ، معنى هذه الحرب التي دامت ثماني سنوات درّت على الغرب مليارات ، ثمن أسلحة ، والجهة الواحدة كانت تبيع أسلحة للفريقين ، وتزداد نار الحرب ، فهناك إنفاق والعياذ بالله شرّ من الإمساك ، النبي الكريم نهى عن بيع السلاح في الفتنة ، فهؤلاء لو أنفقوا شكل مساعدات غذائية ، مساعدات صحية ، أحياناً محطة إباحية تُقدّم هدية لشعوب شمال إفريقية ، قال تعالى :

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٧)

إنفاق المؤمن من أعظم الأعمال الصالحة ، قربة إلى الله ، قصر في الجنة ، درجات عند الله، أن تضع لقمة في فم زوجتك هي لك صدقة ، وتراها يوم القيامة كجبل أحد ، أن تطعم جائعاً ، أن تكسو عارياً ، أن تعالج مريضاً ، أن تتفق على أسرة ، الله عز وجل في عليائه يرضى عنك ، هذا إنفاق المؤمنين ، أما إنفاق الكافرين يقدمون لك أسلحة كي تزداد الحرب ضراوة ، يقدم لك محطة إياحية ، يقدم لك أدوية لتجرب ، مساعدة أدوية ، يرسلون مندوبين خفية ، ماذا حصل مع من استعمل هذا الدواء ؟ يتابعونه فإن مات فالدواء سيئ ، من دفع الثمن ؟ أبناء هذه الشعوب ، هذا إنفاق أيضاً ، فالكافر حتى لو أنفق فإنفاقه شرير ، إنفاقه تدمير ، إنفاقه إجرام :

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ

فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٧)

أما المؤمن فينفق ماله الحلال ابتغاء وجه الله .

شيء آخر : أحياناً يكون هناك كساد بالدول الصناعية ، كساد كبير لا حل له إلا أن تقدم مساعدات لهذه الدول الفقيرة ، هذه المساعدات نحن نتوهمها مالا ، لا ، تقدم مساعدات ، إنها بضائع كاسدة عندهم ، أو أسلحة فاسدة ، أو مواد غذائية شبيهة تالفة ، هكذا يقدمون ، هناك مواد غذائية ليست صالحة للاستعمال البشري ، هناك حبوب مخزنة ثماني سنوات ، انتهت كل فاعليتها ، فهذه تقدم مساعدات ، فالكافر إذا أعطى أعطى ليضر لا لينفع ، أعطى ليحل مشكلته هو ، فقد تقدم المساعدات من أجل ترويج بضائعهم الكاسدة ، الدولة قدمت مساعدات ، وقلبت هذه المساعدات إلى بضائع للمعامل كاسدة ، قد تكون كاسدة لانتهاء مفعولها ، أو لسوء تصنيعها ، أو ما شاكل ذلك ، فلا تعجبوا بمساعدات تأتيكم من بلاد الكفر !! هذه ليست مساعدات :

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٧)

الكفار طبعاً :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ ﴾

معهم أموال طائلة .

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ

فَأَهْلَكَتْهُ ﴾

٥ . خبث الكافر مريح فيها صقيع :

أي كفرهم و سوء طويتهم كمثل ريح فيها صقيع ، أتلفت هذا العمل الصالح ، إذا كان عملهم الصالح كالحرث فكفرهم ، ونياتهم الخبيثة كانت بمثابة ريح فيها صقيع أتلف هذا العمل الصالح فيما يبدو .

هناك موقف آخر ، موقف فيه عدم إنفاق ، في أستراليا قبل عدة سنوات تم إعدام عشرين مليون رأس غنم بالرصاص ، وحفرت مقابر جماعية ، ودفنت هذه الأغنام في مقابر جماعية حفاظاً على سعر اللحم فقط ، حفاظاً على سعر اللحم المرتفع ، أما هذه الشعوب التي تئن من الجوع ، هذه المجاعات التي تجدونها في إفريقيا ، وفي شرقي آسيا ، وفي بلاد كثيرة يموت الإنسان جوعاً ، وعشرون مليون رأس غنم يطلق عليه الرصاص ليموت ، ويدفن للحفاظ على أسعار اللحم المرتفع . في بلاد بأوروبا تتلف من الزبدة ومشتقات الألبان ما يساوي حجم ثلاثة أهرامات في القاهرة ، تتلف من أجل الحفاظ على أسعار مشتقات الحليب المرتفعة .

في بلاد أمريكا أكبر محصول للحمضيات يتلف للحفاظ على الأسعار ، صار الزنجي يتسلل إلى مكان الحمضيات ، ويأكل ، وفي العام القادم سم المحصول حتى لا يستطيع أن يأكله فقير ، هكذا ، فلا بد أن تكفر بالكفر ، حتى يكون الطريق إلى الله سالكاً ، وما دام الكافر عندنا كبيراً ، ومعظماً ، وإنسانياً ، ويعلم حقوق الإنسان ، وهو أول من ينتهكها ، هذا الذي يتفلسف عن حقوق الإنسان أول من ينتهك هذه الحقوق هم ، هؤلاء الذين يتحدثون عن الإرهاب هم أكبر إرهاباً في العالم ، هذه حقائق ، فلذلك إتلاف المحاصيل ، وإلحاقها في عرض البحر ، إلقاء بواخر محملة بمئات الأطنان من القمح في عرض البحر حفاظاً على الأسعار المرتفعة ، هذا هو الكافر قلب كالصخر .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

١ . لكل إنسان صديق وبطانة :

يا من آمنتم بالله لا تتخذوا بطانة من دونكم ، أقرب شيء لك بطانة الثوب ، لا يوجد إنسان ليس له صديق يسر إليه ما لا يبوح به لغيره ، يحدثه عن خصوصياته ، عن مشكلاته ، عن معاناته ، عن آلامه ، عن آماله ، عن خطئه ، عما يدور في خلد ، صديق حميم .

٢ . الله ينهي أن نتخذ صديقاً غير مسلم :

الآية هنا تنهى المؤمنين نهياً قاطعاً أن يتخذوا غير مسلم صديقاً حميماً يجعلونه مقرباً كالبطانة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٨)

أولاً : بطانة ليست مؤمنة كإيمانكم ، ليست مسلمة كإسلامكم ، ليست تخاف الله كخوفكم ، لا ترجو الله كما ترجون ، إذاً من هو الذي ينبغي أن يكون صديقاً حميماً ؟ من هذا الذي ينبغي أن تتخذه صديقاً حميماً تسر إليه بكل شيء ؟ من ؟ هذا المؤمن ، لأنه يؤمن كما يؤمن ، و يخاف الله كما تخاف ، و يرجو ما عند الله كما ترجو ، و ينضب كما تنضب ، ويسعى كما تسعى ، لا يمكن أن يكون الإنسان مقرباً إليك إلا إذا كان على شاكلتك ، إلا إذا كان مؤمناً بما أنت به مؤمن ، يخاف مما تخاف ، يرجو ما ترجو ، أبداً :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٨)

إنسان مقرب ، لصيق بك ، تمضي معه ساعات طويلة ، تسافر معه سفراً طويلاً ، تقيم معه شراكة تجارية أمينة ، هذا ينبغي أن يكون مؤمناً على شاكلتك ، مؤمناً بما أنت به مؤمن ، مخلصاً كما أنت مخلص ، محباً كما أنت محب ، مندفعاً كما أنت مندفع ، مؤمناً بمنهجك كما أنت مؤمن بمنهجك ، هكذا :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٨)

احذروا صديقا هذه أوصافه :

١ . لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا

أي لا يقصرون بإفسادكم ، الخبال هو الإفساد ، لا يقصرون أن يفسدوا حياتكم ، أن يفقرروكم ، أن يذلوكم ، أن يهبطوا مسعاكم ، أن يفسدوا أبناءكم :

﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾

لا يقصرون في إفسادكم ، في تدمير حياتكم ، في إفقاركم ، في تفرقتكم ، في إحباط مسعاكم ، في منعكم من إصلاح ذات أنفسكم :

﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٨)

تمنوا شقاءكم ، تمنوا هلاككم ، إله يبين لنا :

﴿ لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٨)

أي لا يقصرون في تدميركم ، وإفقاركم ، واجتياح أراضيكم ، وإفساد أبنائكم .

قال تعالى :

﴿ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٨)

يتمنون دماركم ، و شقاءكم :

﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٨)

أنت قد تعجب !!! شعوب تموت بمئات الألوف ، مذبحه جرت في إفريقيا في ليلتين ذبح خمسمئة ألف ، الدول الكبرى تتفرج ، لكن قيل : إنها قلقة ، أحياناً يقولون : نحن قلقون لما يجري في هذه المنطقة ، فقط قلق ، أما إذا أرادوا التدخل بثلاثين دولة يتدخلون فوراً ، ويُنهون اجتياح بلد لبلد آخر ، فهم إذاً منافقون ، حينما تتوافق مصالحهم يتدخلون ، وحينما لا تعنيهم هذه المشكلة يتفرجون ، قال تعالى :

﴿ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾

إلا تفعلوا كذا وكذا أنهي الحرب ، معنى ذلك أنهم هم من أشعلوها ثماني سنوات ، إن لم تكن لمصالحهم تُوقف فوراً بتدخل سريع ، يأتي أكبر شخص من آخر الدنيا حتى يُنهي الحرب إن لم تكن لمصالحه ، قال تعالى :

﴿ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٨)

لذلك ورد في بعض الأحاديث : نية الكافر شر من عمله .
مهما رأيت شراً في عمله نيته أكبر ، ينوي ألا يبقى شيئاً ، أن يحرق الأخضر واليابس :

﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٨)

هذا هو الكفر ، لذلك لا يوجد مكان يُناسب الكفار إلا جهنم :

﴿ كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾

(سورة السجدة : الآية ٢٠)

وقال :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾

(سورة الدخان : الآية ٤٩)

لأنهم بنوا حياتهم على أنقاض الآخرين ، بنوا غناهم على إفقار الآخرين ، بنوا مجدهم على إتلاف الآخرين ، بنوا أمنهم على إقلاق الآخرين ، يقول لك بلد مثلاً فيه استقرار مثني عام ، ونحن لا نعرف الاستقرار في الشرق الأوسط ، لأنهم زرعوا لنا هذا الكيان العدوانى ، لا يوجد استقرار . نحن دائماً نتقرب ماذا سيحدث ، هذا حال يُعيق الاقتصاد ، يُعيق التعليم ، يُعيق أي نمو ، فهم بنوا مجدهم على أنقاض الآخرين ، بنوا غناهم على إفقار الآخرين ، بنوا أمنهم على إقلاق الآخرين ، بنوا حياتهم على موت الآخرين ، لذلك لا ينبغي عن نوالهم : من هوى الكفرة حُشر معهم ، ولا ينفعه عمله شيئاً .

قال تعالى :

﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾

(سورة المائدة : الآية ٥١)

وقال :

﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ٢٨)

قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مَنْ دُونَكُمْ ﴾

لا تتخذ إنساناً صديقاً حميماً ليس مؤمناً :

﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾

لا يقصرون في إفساد حياتكم ، تحت اسم التقدم يصبح كل بيت ملهى ليلي ، اصعد إلى جبل قاسيون وألق نظرة على بيوت دمشق ، وانظر ماذا على سطوحها ؟ يقول لك : حتى يرى الصلاة في الكعبة فقط ، لا تصدقوا ذلك ، ليس من أجل هذا يُشترى هذا الصحن ، قال تعالى :

﴿ وَدُوا مَا عَنِتُّمْ ﴾

لا يألونكم خبالاً ، أي لا يقصرون في إفساد حياتكم ، أما ودوا ما عنتم ، أي تمنوا شقاءكم :

﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٨)

إلهنا ، ربنا الخبير ، الرحيم ينصحننا :

﴿ هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٩)

١ . لا للثناء على الكفار :

يقول لك : يا أخي أناقة ، رُقي ، يذهب أأدنا إلى بلاد الكفر فيعود مذهولاً ، يتحدث إليك عشر ساعات عن مزيآهم ، وهذه الشعوب التي تموت من الجوع ، وقد أفقروها ، أرض تُغتصب يُصطلح على اغتصابها أزمة الشرق الأوسط ، اغتصاب أرض :

قتل امرئ في غابة جريمة لا تُغتفر وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

نراقب بقلق ما يجري هنا ، هكذا يُصرِّحون لنا ، قال تعالى :

﴿ هَآأَنُتُمْ أَوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ ﴾

يا أخي رقي كبير ، مطارات ، أناقة ، نظافة ، ترتيب ، فنادق ، هذا رقي :

﴿ هَآأَنُتُمْ أَوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٩)

إله ينصحنآ ، ولا يحبونكم ، قال تعالى :

﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٩)

تؤمنون بنبيهم وكتابهم ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٩)

عندهم أيضاً دبلوماسية عالية جداً ، وقد عرُفت الدبلوماسية بأنها التعبير عن أسوأ النوايا بأعلى الألفاظ :

﴿ هَآأَنُتُمْ أَوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٩)

أي إذا ذهبتم إلى بلادهم تُعجبون .

مرة قلت كلمة ، وأرجو أن أكون دقيقاً فيها ، قلت : إذا ذهبتم إلى بلادهم ، ورأيت في الأرض جنة فهي هناك ، ولكن على الشبكية فقط ، فإذا انتقلت هذه الصورة إلى الدماغ أصبحت جهنم ، تفكك أسري ، إباحية ، انهيار خُلق ، ماديةٌ مخيفة :

﴿ هَآأَنُتُمْ أَوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٩)

٢ . الكفار لا يؤمنن بما نؤمنن به :

وهم لا يؤمنون بكتابكم ، ولا بنبيكم :

﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٩)

﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ﴾

١ . من الإعجاز العلمي : الموت من الغيظ :

هذا من الإعجاز العلمي ، الإنسان يموت من الغيظ ، يموت موتاً حقيقياً ، الشدة النفسية تُميته فوراً ، الشدة النفسية قد تصيبه بجلطة قاتلة ، أو بسكتة قلبية قاتلة ، أو بتوقف للقلب قاتل ، قال تعالى :

﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنَّ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٩)

هناك بلد مسلم بجنوب شرق آسيا حقق تقدماً اقتصادياً كبيراً إلى درجة أصبح عنده فائض بقيمة ستين مليار ، أقاموا عليه مؤامرة ، ودمروه اقتصادياً .

﴿ إِنَّ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾

١ . من السنن الكونية : أذى الكفار للمسلمين :

قال تعالى :

﴿ إِنَّ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٩)

هذه الآية ، والله أيها الإخوة لو لم يكن في القرآن إلا هذه الآية لكفت المسلمين ، ذلك أن الله عز وجل يقول :

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ

مُخْلَفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾

(سورة إبراهيم)

هذا المكر الذي تزول منه الجبال ، جبل يزول !! مهما كان هناك عدوان لا سمح الله ، ولا قدر تخنفي قاسيون ؟ هذا جبيل ، وليس جبلا ، جبال هيماليا تخنفي بقنبلة ذرية ، قال :

﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾

(سورة إبراهيم : الآية ٤٦)

و مع ذلك ، هنا الآية :

﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١٢٠)

٢ . الصبر والتقوى لمجابهة مكر الكفار :

ألغي كيدهم ، انتهى مكرهم ، أحبط مسعاهم ، هذا كلام خالق الأكوان ، زوال الكون أهون على الله من ألا تقع هذه الآية ، أنت اصبر ، واتق الله ، كل كيدهم يتلاشى ، ألم يقل الله عز جل :

﴿ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

(سورة البقرة : الآية ٢٤٩)

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((... وَلَنْ يُغْلِبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قَلَّةٍ))

[أبو داود ، الترمذي ، الدارمي]

لن لنفي المستقبل .

اثنا عشر ألف مؤمن صادق لن يغلبوا في الأرض ، والمليار ومئتا مليون يُغلبون !
حدثني أحد خطباء دمشق ، وهو من بلد أوريي ، أصله مسلم ، قال لي ذهبت إلى بلدي : وخطبت في أكبر مسجد هناك ، وأمامي عشرة آلاف مصل ، قال لي : تأثروا من خطبتي تأثراً لا حدود له ، ومعظمهم بكى من شدة تأثرهم ، وأخرجوا زجاجات خمر ، وشربوها في المسجد ، من شدة تأثرهم بهذه الخطبة :

((... وَلَنْ يُغْلِبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قَلَّةٍ))

[أبو داود ، الترمذي ، الدارمي]

هذا الخطيب من فمه إلى أذني ، لا يوجد وسيط ، قال لي : أنا خطبت ، ثم شرب الخمر في المسجد من شدة التأثر بهذه الخطبة .

﴿ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

(سورة البقرة : الآية ٢٤٩)

تصور دولة عظمى تراقب أي بقعة في العالم .

مرة اطلعت على مجلة ألمانية عليها صورة الأرض من القمر ، صورة مشهورة من القمر على الأرض ، مربع صغير ، كُبر هذا المربع ، فإذا أمريكا الشمالية ، على أمريكا الشمالية مربع صغير ، كُبر هذا المربع فإذا فلوريدا ، على فلوريدا مربع صغير ، كُبر هذا المربع فإذا ساحل من سواحلها ، عليه مربع صغير ، كُبر هذا المربع فإذا رصيف في ميناء لها ، وإلى جانبه أرض خضراء ، مساحة خضراء ، على هذه المساحة نقطة سوداء ، كُبرت هذه النقطة فإذا إنسان مستلق على ظهره يقرأ

قصة عرفت عنوانها ، وإلى جانبه صحن فيه تفاح ، هذه صورة من الأقمار الصناعية أي على مستوى أنها ترصد إنساناً مستلق على الأرض ، ويقرأ قصة ، وقد عُرف عنوان القصة ، يرصدون كل مكان في العالم ، و بإمكانهم أن يدمروا أي مكان في العالم ، حتى إنه لما دمرت يوغسلافيا في حرب البلقان الصواريخ ، نزلت إلى غرفة نوم رئيسها من البنتاغون بالكومبيوتر ، إلى هذه الدقة وصلوا ، رصد أي مكان في العالم ، و تدمير أي مكان في العالم بإحكام ما بعده إحكام ، ماذا قال الله عز وجل :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَارْبَتْتَ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾

(سورة يونس : الآية ٢٤)

﴿ إِنَّ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤُهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾

٣ . تمسكوا بهذه الآية :

تمسكوا بهذه الآية ، والله خلاصنا بهذه الآية ، والله نجاتنا بهذه الآية ، تقدمنا بهذه الآية ، وحدتنا بهذه الآية ، سلامة ديننا بهذه الآية ، سلامة الأجيال الصاعدة بهذه الآية :

﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾

كيد الذي تزول منه الجبال ينتهي ، يحبط ، يُعطل ، إذا كان الله معك فمن عليك ، لكن المسلمين مقصرون ، قال تعالى :

﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾

تصبروا على قضاء الله و قدره ، و تصبروا على الطاعة ، وعلى المعصية ، و تتقوا ، أي تلتزموا منهج الله عز وجل عندئذ :

﴿ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١٢٠)

و الحمد لله رب العالمين

الأسئلة :

نجيب عن بعض الأسئلة في هذه العجالة :

س . لماذا تكلم الله عز وجل بضمير الجمع ؟

ج . قال بعض علماء التفسير : إن الله إذا تكلم بضمير المفرد يقصد ذاته العلية :

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾

(سورة طه : الآية ١٤)

أما :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾

(سورة الحجر : الآية ٩)

إذا ذكر ذاته بضمير الجمع فالمقصود أسماؤه الحسنی ، فعل الله فيه رحمة ، وفيه عدل ، وفيه قدرة ، وفيه حكمة ، وفيه عل

والحمد لله رب العالمين